AL ALAM

أوراق

إذاعة سوا «العربية» في المغرب



• يكتبها: د. يحيى اليحياوي

■ في أواسط صيف السنة الماضية انطلق إرسال «راديو سوا» الأمريكي على الأمواج القوية (دونما إعلان مسبق عن ذلك أو حملة تحسيسية بالحدث)، انطلق بالعديد من دول المنطقة العربية مازجا في أداة تبليغه بين اللغة العربية الفصيحة وبين ما تم له اعتماده من لهجات محلية.

والواقع أن توقيت إطلاق الإذاعة إياها في أعقاب العدوان الأنجلو أمريكي على العراق ووضعه تحت الاحتلال المباشر إنما تأتي في اعتقادنا من اعتبارين اثنين:

+ الأول ويتمثل في الصورة الكريهة التي تكونت لدى المواطن العربي من سلوك إدارة أمريكية يمينية، متطرفة وصهيونية التوجه إثر غزوها للعراق وتدميرها لمعالمه وإخضاع أرضه وشعبه للاحتلال المباشر في زمن اعتقد المرء معه أن زمن الاحتلال ولى إلى ما لانهاية.

لم تكن صورة أمريكا قبل احتلالها للعراق، حسنة ولا كان للمواطن العربي أن يستلطفها (سيما مع مماشاة سياساتها وسياسة إسرائيل العنصرية) بل كان ذات الاحتلال البرهان الأكبر والحاسم لدولة انتظر المرء من تفوقها في الاقتصاد والمال والعلم والتكنولوجيا، انتظر منها الخير قبل الشر ولم يكن يخطر بباله انتهاجها سبيل إهانة الدول والشعوب (حكاما ومحكومين) وتمريغ كرامتهم وكبريائهم ومن خلالها الملايين من أبناء طينتهم ودينهم.

لايدخل قرار انشاء محطة «سوا» بناء على ما سبق، من خلفية تبرير ذات السلوك ولا تفسير ابعاده وتبعاته (وإن بسبل النفاق المضمر)، بقدر ما أتى لتجاوزه عبر طمسه وإذابة ما ترتب ويترتب عنه في صخب من الموسيقى الهابطة والأغاني الشاذة والأخبار المجانبة لصواب الأمور.

+ أما الاعتبار الثاني فيكمن، فيما نتصور، في العجز الإعلامي الكبير الذي بدأت تستشعره الادارة الأمريكية ليس فقط في ابلاغ تصورها لمستجدات الأحداث (بالعراق كما بإزاء القضية الفلسطينية كما بإزاء نواياها بسوريا أو بإيران أو بمنطقة الخليج) بل وأيضا بإزاء «المنظومة العقدية» (الثقافية والدينية والأخلاقية) التي تدفع بها شكلا ولاتتوانى في دفع الحكومات العربية لاعتمادها في المضامين والمحتويات.

لاتروج على هذا الأساس إذاعة «سوا» (وقناة سوا التلفزية قريبا دون شك) لمستجدات عابرة أو احداث محددة، بل تعمل أيضا وبالأساس ضمن ذلك وفي خضمه على إقحام مواد وبرامج تمجد «النموذج» الأمريكي وتبشر ب «فضائله» على واقع المواطن العربي ومستقبله.

ومعنى هذا أن فلسفة الإذاعة لاتتمثل في البلوغ المباشر للهدف (مما قد يقلل من مفعوله بحكم مناعة المواطن العربي من الايديولوجية الإعلامية الأمريكية)، بقدر ما تكمن في تذويب ذات الهدف (والايديولوجيا أيضا) بطريقة ملتوية تتوسط الأغنية السريعة والحوار القصير والخبر العابر لبلوغ ذلك حتى وإن كان المفعول المرجو طويل المدى.

+ الاعتبار الثالث ومفاده أن التجربة علمت الادارة الأمريكية أن مخاطبة الجماهير العربية بالقنوات المعتمدة الى حين عهد قريب (صوت أمريكا، س.ن.ن. وغيرها) لم يعد له المفعول المرجو ولا الجدوى المطلوب من ورائه.

والسر في ذلك لايكمن فقط في استقطاب المواطن العربي من لدن قنوات فضائية حديثة العهد يجد بها اذا لم يكن ذاته فعلى الأقل ضالته ولكن أيضا بالأساس كون القائمين على ذات الاذاعة أدركوا ان الوطن العربي ليس لحمة واحدة ولا تجمعه لغة واحدة (بل «مجموعة لهجات») ولا ارتباط يذكر بصلبه بين الفئات العمرية والأجيال.

بالتالي، فلم يكن تركيزها على اللهجات و الفئات الشبابية» وغيرها وتشكيل شبكتها البرمجية بناء على ذلك، لم يكن تركيزا عفويا، بل مدروسا ومبنيا ومحدد الأبعاد والأهداف.

في هذا السياق وعلى أساس هذه الخلفيات نشأت اذاعة «سوا» بالعديد من الدول العربية وتموطنت بصلبها تارة باللغة العربية الفصحى، وتارات عدة باللهجات على خلفية من «نظرية القرب» و«بناء جسور التواصل».

■ ● ■

لم يشذ المغرب يوما عن خيارات أمريكا ولا عما تريده أو تبتغيه أو تفرضه أو تعمل على تنفيذه. فهو قاعدتها الضمنية والمعلنة في الخير كما في الشر سواء بسواء:

+ فالمغرب سمح لإذاعة «سوا» بالإرسال دونما أن يتوفر لذات «القرار» مسوغ قانوني يذكر أو مبرر سواه مقنع.

فتحرير المجال السمعي / البصري بالمغرب لم يعتمد بعد وعشرات الاذاعات لم يبت في طلباتها المقدمة، والهيئة العليا للاتصال السمعي / البصري لم يتسن لها بعد تقديم الولاء الرسمي حتى يكون بمستطاعها الاجتماع والاشتغال... وهكذا.

+ والمغرب على لسان وزير الاتصال، وجد لذات الترخيص المسوغ والمبرر في استغفال لدولة الحق والقانون التي ما فتئ يدافع عنها أو يبشر بحتمية قدومها.

فهو يعتبر ذات السماح تارة جزءا من علاقات (مع الولايات المتحدة) استراتيجي وحاسم، وتارة يعتبره مدخلا لقانون تحرير المجال السمعي / البصري الذي من شأن اعتماده الترخيص الرسمي لذات الإذاعة في البث والارسال.

- والمغرب، على لسان وزير الاتصال، لا يخجل من ذات القرار بل يستبشر به خيرا ليس فقط في أفق توقيع اتفاقية التبادل الحر بين المغرب والولايات المتحدة، بل وأيضا بوجود حالات كان لمركزية القرار بشأنها القول / الفصل فيما بين الدول (كما هو الحال مع ميدي 1) أو داخل الدولة المغربية فيما يتعلق بقرار إنشاء القناة الثانية بوجود نص في الاحتكار ساري المفعول لأكثر من ستة عقود من الزمن.

قد لا تنتاب المرء غضاضة كبرى لفهم السر وراء الترخيص لهذه القناة بمعظم دول الخليج (وجلها أضحت قواعد أمريكية بامتياز)، لكنه من المتعذر استساغة الآية من الترخيص لها بالمغرب لا تتعدى أهميته (منذ احتلال امريكا للعراق) المرتبة الثانية في أحسن الأحوال.

إلا أن المغرب (والمغرب العربي عموما) له في الاستراتيجية الأمريكية (المبنية على الحروب الوقائية والسياسات الاستباقية)، له فيها أكثر من هدف وأكثر من موطئ قدم:

- فالمغرب (والمغرب العربي إجمالا) لا يستأثر بانتباه الادارة الأمريكية بحكم جغرافيته أو مخزوناته الباطنية فحسب، بل وأيضا بحكم شريحة الشباب التي تكون الغالبية العظمى من ساكنة ذات الرقعة الجغرافية. بالتالي، ف «تنميط» ذات الشريحة وإغراؤها واستلابها من لدن «النموذج» الأمريكي لا يكون لذات النموذج صمام أمان في المستقبل بل وأساسا فصيلة من البشر تتماهى والنموذج إياه في الشكل كما في المضمون. وهو ما تعمده إذاعة «سوا» وتعمل على بلوغه وإن بالتدرج الممل والهدف غير المضمون.

- والمغرب (والمعروف العربي عبره) يتفاخر بالتقارب مع أمريكا ولا عقدة لديه تذكر عما تمارسه بهذا القطر العربي أو ذاك، بل يكتفي ببعض من التنديد المجامل وبكثير من الصمت المطبق وفي أحيان كثيرة «بالدعوة إلى التسامح والحوار».

بالتالي، فاعتماد موقف من ذات المواقف (حتى «المتطرف» منها) لا يتعذر فقط اختراقه أو التبرير على أساسه، بل يعتمد أداة ضغط وابتزاز بحكم تواطئه وغياب الحسم والوضوح من بين ظهرانيه.

وعلى هذا الأساس، فلن تجد إذاعة «سوا» عسكرا كبيرا للتموطن بين ظهراني النخب الحاكمة بهذا البلد (من المغرب العربي) أو ذاك مادامت تسير كلها على هدي أمريكا وهداها.

■ ● ■

ليس لدينا أدنى شك، بناء على ما سبق، أن إذاعة «سوا» لا تتغيا إطلاقا «تفسير» سياسات الولايات المتحدة بالمنطقة على المدى الطويل «أو تبرير سلوكها بهذه الطريقة أو تلك، بقدر ما تتكرس لدينا القناعة يوما بعد يوم بأن الذي تستهدفه ذات الإذاعة إنما اختراق «المنظومة الإعلامية» العربية والبناء على أنقاضها قلبا وفي القالب:

- فتوقيت إرسالها إنما جاء عقب إهانة (لن تندمل آثارها على المدى المتوسط والطويل) طالت العرب والمسلمين بفلسطين كما بأفغانستان كما بالعراق كما بليبيا كما بالسودان كما بغيرهم...) كانت في جلها بغير موجب حق وترتب عنها كسوف مطلق لمبادئ الحرية والديموقراطية التي لطالما تفاخرت بها الأجيال بأمريكا.

لن تستطيع إذاعة «سوا» (ولا قناتها التلفزية) الإصلاح بالكلمة والصورة ما كسره الساسة بالفعل والممارسة.

بالتالي، فإن المراهنة على الإذاعة إياها لتحسين صورة لا تزداد مع مرور الزمن إلا قبحا إنما هو من المراهنة على معطى موضوعي لا مجال لتغيير منعطفه.

إذ السلوك الأمريكي إزاء العرب، كما إزاء المسلمين إنما كان خلف إفراز حالات من الرفض لن يرهنها أداء هذه الاذاعة (أو التلفزة) أو تلك بقدر ما هي مرهونة بتغيير السلوك إياه في شكله وفي المضمون.

- وطبيعة «برامجها» كما الشريحة الاجتماعية المستهدفة لا تشي، فيما نتصور بعملها على إصلاح ما أفسده الساسة، بقدر ما توحي بأن لا شيء بالمنطقة يستأهل التقييم أو تحليل ما جرى وما يجري أمام طقوس الغناء والطرب والرقص و«المتعة الفنية» وما سواها.

يبدو الأمر إذن بالاستماع السريع لإذاعة «سوا» ولكأن الإشكال مع الادارة الأمريكية إنما هو إشكال تواصل وحوار و«مد جسور التعارف أكثر» في حين أنها تتغيا التخدير المستمر لشريحة بالمجتمع قد تبدو استمالتها أمرا غير متعذر كثيرا.

إنها قناة عدوانية بامتياز، كيف لا وهي صنيعة إدارة لا تتوانى في إهانة البشر والحضارة والحجر في الغالب الأعم دون موجب حق يذكر؟

بالتالي، فلا سبيل يبدو لنا سوى مقاطعتها والتحريض على مقاطعتها.

والوسيلة الأساسية في ذلك لا تكمن فقط في تجاهلها وتوعية الشباب بضرورة تجاهلها، بل وأيضا في العمل على فضح خلفياتها والفلسفة الثاوية خلف إنشائها وخلف «خطها التحريري».